رجعة أبي العلاء

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

أبو العلاء المعرى رجل عبقرى الذهن ما فى ذلك شك ، وهو فى عبقريته هذه نفاذ مستوعب يقتحم كل شىء ويحيط بكل شىء . ولقد اهتم به كثير من النقاد والباحثين فى هذه الناحية ، فدرسوا آثاره ، وشرحوا أقواله ، وحللوا ملكاته ، وقال كل فيه بما يرى وعلى ما يفهم ، والأستاذ العقاد فى جملة هؤلاء الذين عنوا بشيخ المعرة ، بل إنه لأشدهم مصاحبة له ، ونظراً فيه ، وإدماناً عليه . اتخذه رفيقاً فى جميع أطوار فكره ، وجرى معه فى كل أدوار عمره ، وكتب عنه فى « المطالعات » عدة فصول هي أدق وأعمق ما كتب عن المعرى فى عبقريته وفلسفته وتحليل ملكاته ...

والمعرى أيضاً رجل عبقرى النفس ما فى ذلك شك ، وعبقرية النفس هى الشعور بالواجب والحرص عليه ، والإيمان بالحق والتفانى فيه ، والإحساس القوى الذى يملأ النفس بالروحانية والثقة والكرامة والأنفة والترفع عن كل مايشين ويزرى بصاحبه . وغاية الكمال فى « الشخصية » الإنسانية أن تجتمع لها العبقريتان: عبقرية الذهن وعبقرية النفس ، فتتوازن من الجانبين ، وتتعادل فى الجهتين ، فإذا هى على استواء فى التفكير والتقدير ، والعواطف والأهواء ...

وإذا كان المعرى فى الناحية الأولى قد أشبعه الباحثون قديماً وحديثاً بالبحث والدرس ، فإنه فى الثانية مطمور مغمور ، لم يفطن إليه كاتب ، ولم يتنبه له ناقد ، ومن هذه الناحية المجهولة ، أراد العقاد أن يكشف عن أبى العلاء فى « رجعة أبى العلاء » فبلغ من ذلك غاية ما يبلغه الناقد البصير فى الكشف عن « مجهول » بالفرض والاستنتاج والحدس والتخمين والمقارنة بين العبقريات والشخصيات ، والمقابلة بين الآراء والأفكار ، مع مراعاة الزمان والمكان ، والظروف والملابسات

فى المقال الذى كتبه العقاد عن « صاحب الجلالة المعرى » دراسة قويمة نافذة ، تتجلى فيها عبقرية العقاد فى البحث والتحليل وتنكشف فيها عبقرية المعرى النفسية ، أو ما يسميه العقاد بشيمة السمت والوقار ، أو كما نقول فى لغة العصر الحاضر : أدب البيئة وأصول اللياقة « ص ٢٤ » ومن رأى العقاد أن هذه الخصلة فى الرجل ترجع إلى مراجع كثيرة : هى التربية فى بيت العلم والوجاهة ، والسليقة العربية ، وفقد البصر ، والكبرياء ، وعزة النفس ، ووهن البنية ، وضعف الخوالج الجسدية ضعفاً أتاح له أن يكبح نوازع اللحم والدم ويقمع دوافع الشهوات

وفى الفصل التالى يمعن العقاد فى التحليل والكشف عن عبقرية المعرى النفسية ، ويحاول أن ينظر إليه فى « عالم السريرة » فيسأل : هل كان من المستطاع تغيير هذه الخصلة ، خصلة السمت والوقار ؟ ثم يسأل : وماذا كان المعرى صانعاً لو أنها تغيرت بعض التغيير أو كل التغيير؟ ثم يجيب العقاد على ذلك بأن تغييرها كان مستطاعاً كما يستطاع كل تغيير فى عوارض الصفات ، وأكبر الظن فى هذه الحالة أنه كان يجمع بين النواسية والخيامية فى نمط واحد ، أو كان يخرج لنا نمطاً جديداً يضاف إلى نمط النواسى ونمط الخيام فى ديوان الآداب الشرقية

ولقد بلغ العقاد فى هذا الفصل والذى قبله غاية لا تطاول فى التحليل والتقدير والاستنباط . وهذان الفصلان هما خير ما فى كتابه من الدراسة ، وأمتع ما فيه من نفاذ الذهن العبقرى

فى إدراك السر العبقرى . ولقد فرض العقاد لشيخه المعرى فروضاً كثيرة ، ونظره فى أوضاع مختلفة . ولقد حاول أن يلبسه لبوس قاضى المعرة ، أو أن يظهره فى مظهر النواسى ، أو يجعله على نهج الخيام وطريقته، ولكنه انتهى به إلى حقيقته الكائنة « فأبو العلاء هو أبو العلاء » حين يمعن فى أغوار ضميره فيلمح هواجس قلبه ، وشكوك عقله ، ومادة علمه واختباره ، وآثار نعمته وحرمانه (ص ٦١)

وبهذه الطبيعة الكائنة رجع العقاد بشيخه المعرى إلى الحياة ، وطوّف به فى أنحاء الأرض ، واستطلع طلعه فى شؤون العالم الحاضر مما رأى وسمع . فلما بلغ غاية المطاف ، وسئم المضيفين والأضياف ، رجع به إلى مثواه ، وانتهى به إلى حيث هو فى رقاده ، بعد أن ودّعه بقصيد على طريقة اللزوميات . والفكرة فى رجعة إبى العلاء قد حاولها المنفلوطى رحمه الله من قبل ، ولكن هناك فرقاً كبيراً بين العقاد والمنفلوطى فى رجعة أبى العلاء وبعثه، فقد كان المنفلوطى يبنى دراسة المعرى من أقواله وأشعاره فانتهج لذلك نهجاً قصصياً قريباً إلى النفوس ، سهلاً فى التناول . أما العقاد فقد تخيّل «رهن المحبسين» يجوس بيننا خلال الديار ، ويتمرس بأحوال الأمم فى عالمنا الحاضر . ثم راح ينطقه بالرأى فى شؤون زماننا بالقياس على المعهود من كلامه ، والمقابلة بين المعروف من آرائه، وهو فى كل هذا يستشهد بشعره ، ويتمثل بقوله ، ويصطنع لغته ، ويجرى على طريقته ...

ولقد أخذ على العقاد بأنه فى كتابه قد أظهر شخصيته هو لا شخصية أبى العلاء ، وأبدى رأيه هو لا رأى شيخه فى الحياة ، وأنه أنطق الرجل بالقرآن وما كان ديدنه ذلك ، وكأنى بقائل هذا قد فاته الفرض الذى قصد إليه العقاد . وأشار إليه فى المقدمة بصريح العبارة ، فإن العقاد لم يقصد إلى دراسة المعرى ولكنه فرضه حيًّا فى هذا العصر ، وعلى هذا الفرض أنطقه بالرأى قياساً على المعهود من كلامه وآرائه كما يقول ، فله أجر المجتهد إن أخطأ أو أصاب فى مجال الفرض والتخمين ...

وفى الكتاب أقوال يجوز فيها بيننا وبين الأستاذ الخلاف ، فهو يقول مثلاً : أما الخمر فلا أستبعد أن الشيخ قد ذاقها فى بعض الأديرة التى كان ينشاها للدرس (ص ٤٦) وأنا أخالف الأستاذ فى ذلك وأرى أن وصفه للخمر لا يقوم دليلاً على ذلك . والأستاذ العقاد نفسه يأخذ بهذا الرأى فيما كتبه عن المعرى فى المطالعات فبأى قولى الأستاذ نأخذ ؟

ويقول على لسان المعرى لتلميذه حسبك حسبك وهو يشرح له فلسفة العصر فى المرأة ، وعهدنا بالمعرى يتلهف على المعرفة ، ويضرب إليها أكباد الإبل ، فليس من طبعه أن يقول : حسبك حسبك . فى مثل هذا المقام

ويقول العقاد : أما أبو العلاء فهو قريب من أبى نواس فى الثقافة ، وكان الأنسب أن يقول : ولقد كان أبو نواس قريباً من المعرى فى ثقافته ... والفرق واضح بين القولين

ويحاول الأستاذ العقاد أن يقف بالمعرى فى المناقشة والمحاجة دائماً موقف التريث المجمجم المتعض ، وما كان المعرى كذلك بطبعه إلا فى مواقف التقيّة والمداراة

وأعود فأثنى على كتاب أستاذنا الكبير خير ثناء ، وأشكره على يوم قضيته فى استجلاء « كتابه » فلم أندم عليه ، بل ربحت منه الكثير ، وأفدت منه النافع الجليل .

م . ف . ع

التصوف الإسلامي

فى الأدب والأخلاق

يقع فى مجلدين كبيرين وثمنهما معا أربعون قرشا

وهو يطلب من المكاتب الشهيرة فى البلاد العربية

ويطلب بالجملة من مطبعة الرسالة